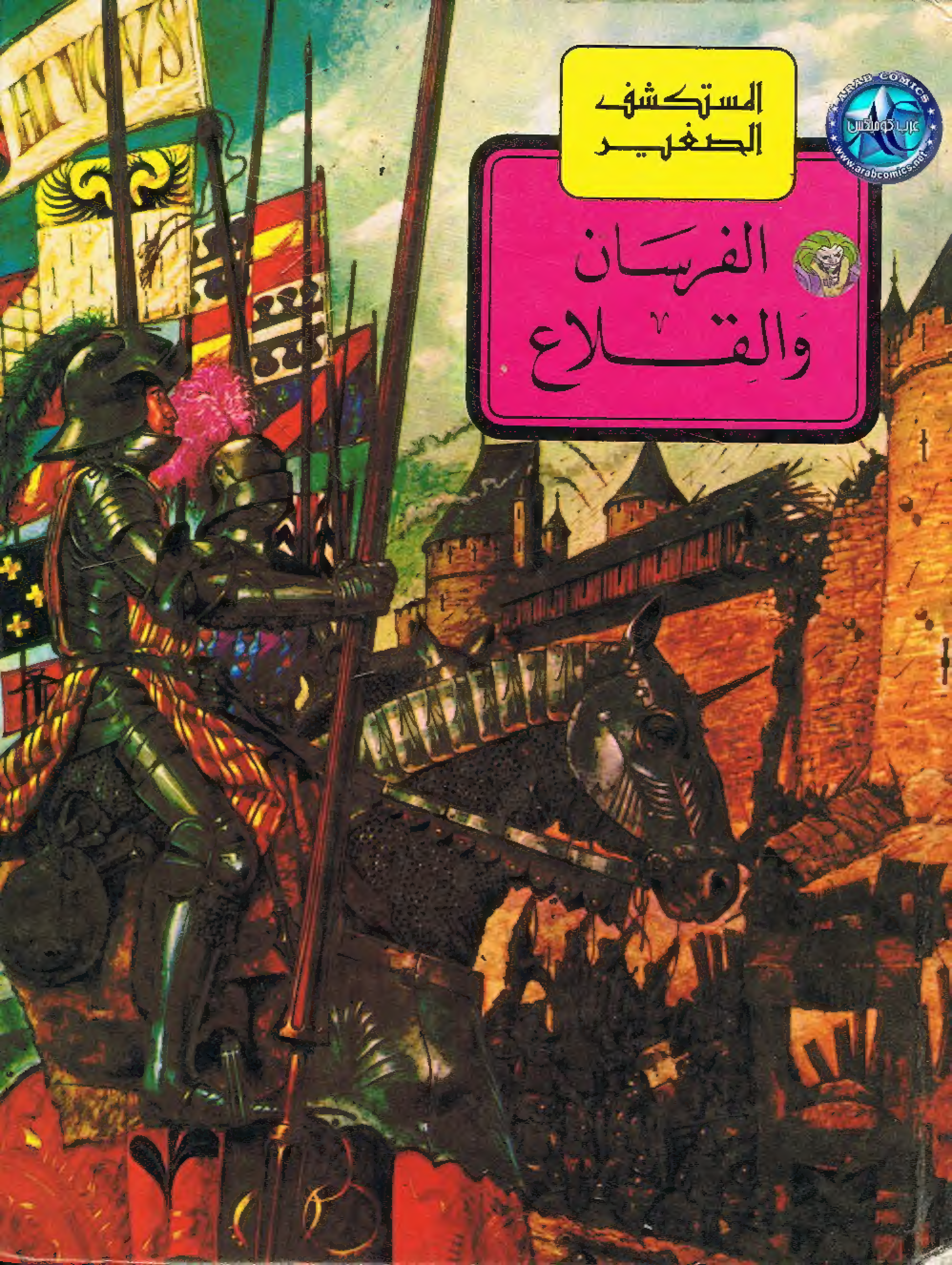
المستكشف الصغير

الفرسان والقلاع



دار المسيرة

الإخراج : دار المسيرة : بيروت

التنضيد والمونتاج : المركز الالكتروني للخدمات الطباعية

الطباعة : مطبعة فينيقيا

الفرسان والقلاع

دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت



كانت أوروبا في العصور الوسطى مقسمة إلى ممالك عديدة وكثيراً ما كان الملوك يتنازعون ويقتتلون، لذا كانوا بحاجة إلى مساعدة فرسانهم المدرعين. فكانوا يعطون الفرسان الأراضي الواسعة مقابل خدماتهم في الحروب. وكي يستطيع الفرسان الدفاع عن أراضيهم كانوا يبنون القلاع المنيعة.

لم يكن الفارس جندياً قوياً فحسب، بل كان عليه أن يكون نبيلاً ويتحلى بأخلاق الفروسية. وكان الرواة يحكون حكايات كثيرة عن شجاعة مشاهير الفرسان.

ولكن خارج أوقات الحرب كان الفرسان يمضون أوقاتهم في الصيد. وكثيراً ما كان الملك يخصص غابات كاملة كي يصطاد فيها هو وفرسانه. وكان الصيد بالنسور المدربة من أحب هواياتهم.



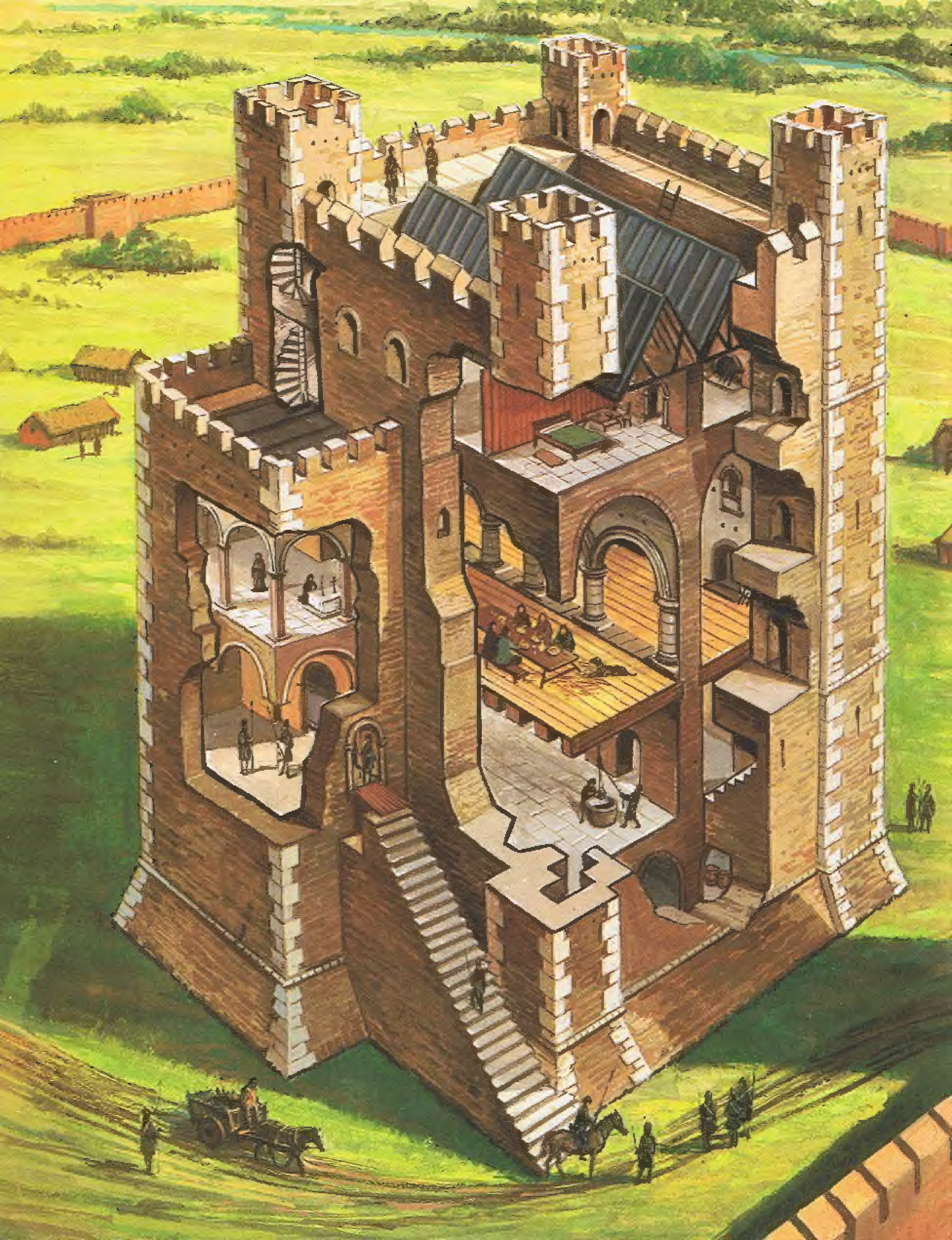


البيت الحصين

في الماضي السحيق كان الناس الذين يحملون لقب الفرسان يساعدون الملك في حكم بلده وفي خوض معاركه. وكان «السادة» أكثر الفرسان أهمية، وكانوا يعيشون في قلاع، والقلعة بيت وحصن في الوقت نفسه، يعيش فيه «السيد» وعائلته في مأمن من الهجمات.

وكانت القلعة تؤوي الكثير من الناس فهناك الجنود الذين يحاربون تحت إمرة السيد، إلى جانب الطباخين وأمناء المستودعات وساسة الخيل وعمال الإصطبل وصانعي الأسلحة الذين يعنون بالسلاح. يعلو في وسط الساحة الكبيرة الحصن، الذي ترونه في الصورة، تحيط به أسوار سميكة وخندق يمنع اقتراب المهاجمين، فإذا ما استطاع المهاجمون اختراق الأسوار يلجأ الجميع إلى الحصن المزود بمخزن كبير للطعام وبئر ماء. ويلتف الدرج الحلزوني للحصن دوماً باتجاه اليمين ليتمكن الفرسان الهابطون من استعمال سيوفهم بسهولة بينما لا يستطيع المهاجمون الصاعدون استخدام سيوفهم لأن جدار الدرج يعوقهم.





القاعة الكبرى

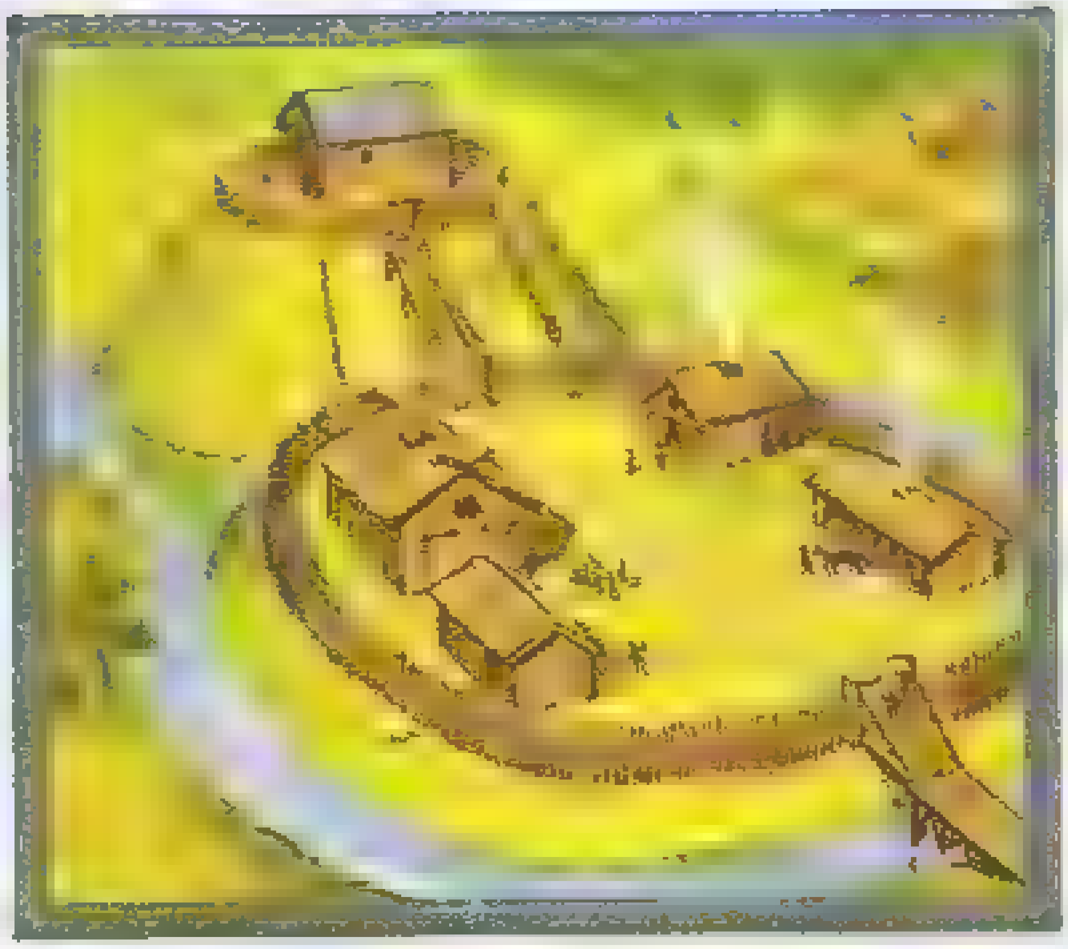
كانت القاعة الكبرى أعظم وأكثر غرف القلعة نشاطاً. ففيها كان السيد يعطي أوامره لكبار أتباعه وهناك كان يقرر عقاب المخطئين وفيها كان الصبية الذين يسمون «بغلمان الفرسان» يتلقون دروسهم ليصبحوا فرساناً، وهناكَ كان الجميع يتناولون وجبات الطعام.

وفي الأيام الباردة كانت تضرم النار في المداقئ الكبيرة، ولكنها لم تكن مدافئ جيدة إذ





كانت تنفث الدخان في القاعة. وفي أحد جوانب القاعة منصة يجلس عليها السيد وزوجه وكبار الضيوف على مقاعد أمام «المائدة العالية» بينما يجلس العامة على مقاعد خشبية أمام طاولات خشنة. وأثناء الطعام كان الرواة يعزفون الموسيقى ويغنون أغاني الحب والمغامرة. وعندما يحين وقت النوم يذهب السيد وزوجه إلى غرفتهما بينما ينام الآخرون على القش فوق الأرضية الحجرية.





القلاع عبر العصور

لم يكن للقلاع الأولى قاعات كبيرة أو أبراج حصينة عالية، بل كانت عبارة عن أبراج خشبية بسيطة بنيت على عجل فوق رابية من الأرض، وكانت القلعة تحتمي وراء سورين، سور قوي يحيط بالبرج وآخر في المنحدر. يمكنك أن ترى قلعة من هذا النوع في الصورة رقم ١.

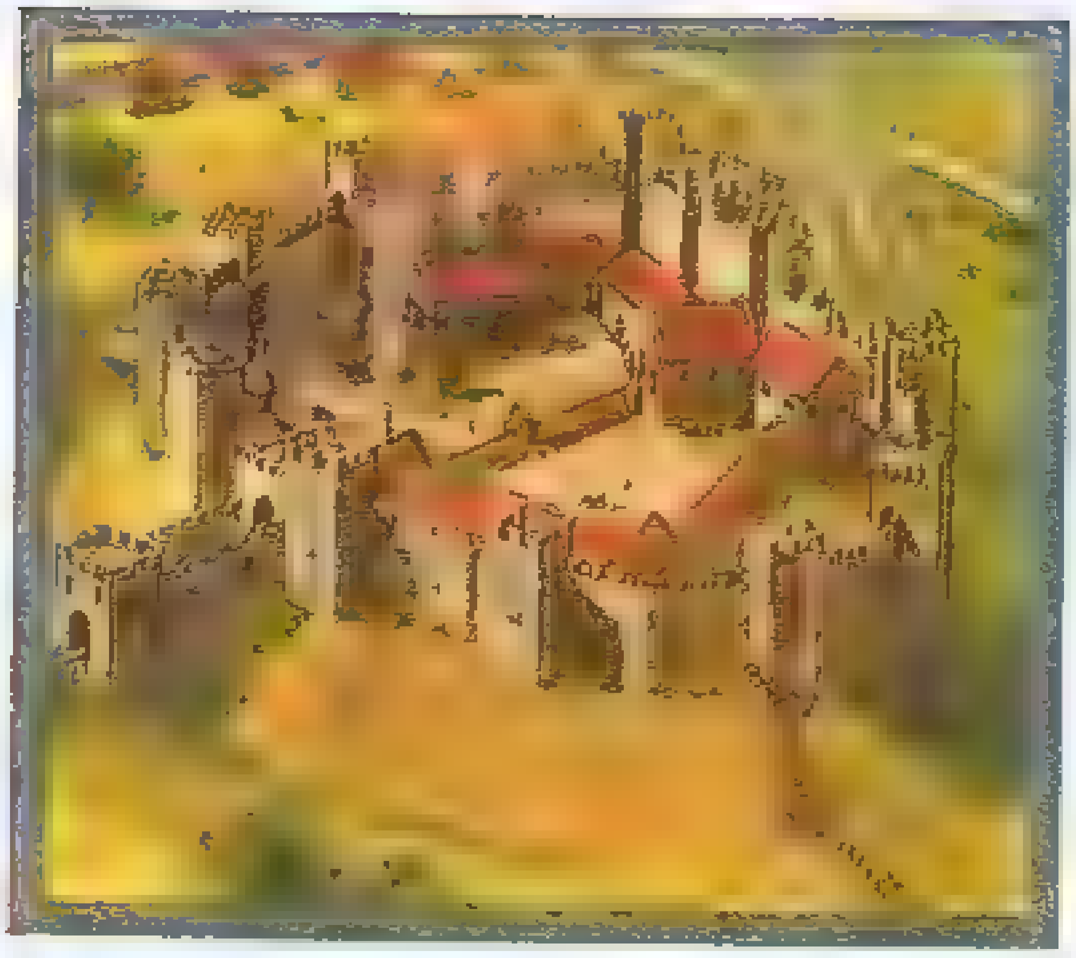
وكان الفرسان في أمان في برجهم الخشبي، ولكنه لم يكن بيتاً مريحاً، كان للسيد وزوجه غرفة نوم خاصة بهما ليس فيها سوى سرير وصوان توضع فيه الأشياء، بينما يعيش البقية ويأكلون وينامون في القاعة الباردة. وسرعان ما بدأ الفرسان يبنون قلاعاً أقوى مصنوعة من الحجارة تشبه القلاع الخشبية بحصونها الضخمة التي تحيط بها الأسوار. يمكنك أن ترى الحصن الحجري في الصورة رقم ٢.

بعد ذلك أصبحت القلاع مثل تلك التي ترونها في الصورة رقم ٣، لها أسوار سميكة وقوية، وأبراج مبنية داخل الأسوار. وكان كل برج بمثابة حصن صغير حيث يمكن للجنود القابعين فوق الأسوار أن يلقوا بالصخور وأن يسددوا نبالهم على الغزاة في الأسفل. كما كان بإمكانهم رمي السهام والنبال من خلال شقوق ضيقة في الأبراج. واستبدل الحصن ببيت جميل للسيد وعائلته داخل الأسوار، كما بنيت المطابخ والإسطبلات والحظائر والمعبد وسواها من الأبنية، وهكذا أصبحت القلعة أشبه بقرية صغيرة.

وبمرور الأيام أخذ الفرسان يبنون قلاعاً أكثر ضخامة، ترون في الصورة رقم ٤ قلعة بنيت على قمة هضبة صخرية.

كانت قلعة منيعة من الصعب اقتحامها وكان الرماة الذين يدافعون عنها يطلقون سهامهم من فوق الأسوار كما كانوا يطلقونها من الأسوار المنخفضة المحيطة بها.

ترون في الصورة رقم ٥ قلعة جميلة يحيط بها خندق عبارة عن حفرة عميقة تملأ بالماء، تحيط بها أسوار عالية قوية، وكانت البوابة منيعة كأنها حصن إذ كانت الملجأ الأخير للسيد وأتباعه إذا ما نجح الغزاة في اختراق أسوار القلعة.



الدروع

كان الفرسان يرتدون الدروع لحماية أنفسهم أثناء المعركة. فكان الفارس أيام النورمانديين يرتدي درعاً مصنوعاً من حلقات معدنية صغيرة وصلت ببعضها فأصبحت كالسلسلة. وكانت تسمى «الزردية»، كما كان يرتدي معطفاً له دثار سميك ليخفف من وقع الضربات. كانت الزردية تحمي الفارس من الضربات القاطعة التي يوجهها إليه سيف العدو إلا أنها لم تكن تمنع السهام الماضية أو الطعنات التي يوجهها رأس السيف الحاد أو الرمح.

مدخل لفهم أجزاء الدرع

منظار ١	حامي المرفق ٤
درع الصدر ٢	لباس الفخذ ٥
قفاز ٣	الساق ٦
	قفاز القدم ٧



قناع من القرن الثالث عشر

كان الفرسان المسلمون والصليبيون يرتدون زرديات أثناء الحروب الصليبية ولكنهم كانوا يستعملون نوعاً جديداً من الدروع لحماية ركبهم كان يسمى «الدرع المصفح». وكان يصنع من صفائح رقيقة من الحديد أو الفولاذ.

كان هذا النوع الجديد من الدروع يحمي الفارس بشكل جيد أثناء المعركة مما دعاهم إلى ارتداء بذلات كاملة مصنوعة من صفائح معدنية. وكانت الرقائق المعدنية تصنع بشكل يلائم مختلف أجزاء الجسم، وتوصل ببعضها بمفصلات أو أربطة، بشكل يضمن سهولة الحركة. وبهذا أصبح الفارس يعبر في دروعه اللامعة وسط وابل من السهام دون أن يصيبه أذى، كما كانت ضربات السيوف تنزلق على المعدن الصقيل. وأصبح الفارس يستعمل الهراوات والقضبان الشائكة المعدنية كي يوقع غريمه من فوق حصانه.

لم يكن الفارس قادراً على التمييز بين الصديق والعدو في المعركة لأن الوجوه كانت مخبأة تحت القلنسوة، لذا اختار كل فارس رسماً أو نموذجاً خاصاً به يسمى «شعار النبالة»، وكان يرسم على التروس ويطبع على السترات والأعلام والرايات. ترون في الصورة بعض الرسوم البسيطة التي كانت تستعمل كشعار للنبالة.



شعارات النبلاء

قناع من القرن الرابع عشر

دبوس من القرن الخامس عشر

قناع من القرن الخامس عشر



من تابع إلى فارس

لم يكن الأطفال يذهبون إلى المدارس أيام الفرسان والقلاع. بل كان النبلاء يرسلون أبناءهم ليعيشوا في قلعة ويتعلموا كيف يصبحون فرساناً.

كان الصبيان يبدؤون تدريبهم كغلمان يخدمون السيدات على المائدة، ويتعلمون القراءة والكتابة والحساب والغناء وكتابة الشعر. كما كانوا يتعلمون الصيد والقتال. وأهم من كل ذلك كانوا يتعلمون اللطف والاستقامة والشجاعة والاخلاص.

وعندما يصبح الصبي في الرابعة عشرة من عمره يصبح حامل دروع. كان لكل فارس حامل دروع يساعده. وكان حامل الدروع يعنى بدروع الفارس ويساعده على ارتدائها، وكان الفارس يعلم حامل دروعه المبارزة بالسيف ورمي الرمح.

وفي الواحدة والعشرين ينتهي تدريب حامل الدروع، فقد أمضى وقتاً هاماً ومثيراً. فبعد هذا يجتمع السيد وفرسانه في القاعة الكبيرة في صباح اليوم التالي ويساعدون حامل الدروع أولاً على ارتداء درعه، ثم يستمعون إلى قسمه الذي يقضي بأن يخدم الله وأن يكون فارساً جيداً وشجاعاً. وتأتي اللحظة الحاسمة عندما يقف أمام سيده «ليمنحه الرتبة» فيلمس السيد كتفه بسيفه بوقار قائلاً: «أقلدك رتبة فارس».





المثاقفة

كان الفارس جندياً يقاتل لنصرة سيده. وخارج أوقات القتال كان الفرسان يظهرون براعتهم وشجاعتهم في المباريات وهي معارك مفتعلة ودية ولكنها خطيرة. كانت المباريات تقام في أيام العطل أو عندما يأتي زائر هام إلى القلعة. وكان يوم المباريات حافلاً بالمرح والألعاب التي يشارك فيها الجميع. فكان بمثابة معرض حيث تنصب الخيام الزاهية الألوان ويأتي الناس من مسافات بعيدة حول القلعة ليستمتعوا بالبهجة والصخب.

يساعد حاملو الدروع فرسانهم على ارتداء دروع المعركة كاملة وامتطاء صهوات خيولهم المزينة، ويطلق النفير ويعلن الحكم بدء المباراة، وكانت المثاقفة أحب أنواع القتال وأكثرها شعبية.

ينطلق الفارسان في المثاقفة، على ظهري حصانيهما وكل منهما يحمل رمحاً خشبياً كليلاً، ويحاول كل منهما إيقاع خصمه من فوق حصانه، ويحتدم النزاع وينكسر الرمح بسهولة، وهنا يأتي دور حامل الدروع الشاب الذي يقف مستعداً لمساعدة فارسه على النهوض إذا وقع أرضاً، أو ليناوله رمحاً جديداً. وكثيراً ما كانت تقام المباريات الكبيرة التي يشترك فيها فريقان من الفرسان يشتبكان مع بعضهما بالسيوف وكانت بمثابة تدريب جيد على خوض المعارك الحقيقية. كان الفرسان ينقضون بسرعة هائلة ويحاربون بضراوة كثيراً ما كانت تؤدي إلى إصابتهم إصابات خطيرة. وبنهاية اليوم يعلن أكثر الفرسان شجاعة أبطالاً.





الحصار

كان اقتحام القلعة عملية صعبة وخطيرة فكان الغزاة يحفرون الأنفاق تحت الأسوار أحياناً أو يدكون السور فيفتحون فيه فجوة بواسطة عامود ثقيل يسمى «الكبش» كما كانوا يستعملون السلالم الطويلة لتسلق أسوار القلعة العالية ويرشقون الحجارة والسهام المشتعلة من المنجنيق الضخم. وكان المدافعون يطلقون



سهامهم عبر فتحات في الشرفة المفرّجة. كما كانوا يلقون الجلاميد الثقيلة على الأعداء أو يسكبون عليهم الزيت الحار.

كان الحصار من أفضل طرق إضعاف قوة القلعة. إذ ينصب الغزاة خيامهم قرب القلعة على بعد لا تطاله السهام ويوقفون أي شخص يحمل الطعام والمؤن الأخرى إلى المحاصرين، وبعد فترة ينفد الطعام وتضطر القلعة إلى الاستسلام ولكن الحصار لم يكن دائماً سلاحاً ماضياً فقد كان لبعض القلاع بوابات سرية خلفية تسمى «مرفأ الهجمة» فكان جند القلعة يتسللون بهدوء تحت جنح الظلام عبر تلك البوابة السرية ويقومون بهجوم مفاجىء على معسكر الأعداء.



الحروب الصليبية

خلال الحقبة التي أصاب فيها الوهن السلطة السياسية الإسلامية بسبب العديد من العوامل وأهمها سيطرة أبناء شعوب غير عربية على مقاليد السلطة، وجد الأوروبيون أن الفرصة باتت مواتية لغزو المناطق الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.. متذرعين بأن الحجاج المسيحيين القاصدين الأراضي المقدسة يتعرضون للمضايقات.. وكانت تلك حجة تخفي أطماعهم الحقيقية.

وتوجه الفرسان المسيحيون الأوروبيون وهم يحملون على صدورهم شارة الصليب إلى المنطقة وانضم إليهم العديد من شذاذ الآفاق، وبعض الأقليات التي لم تدخل الإسلام في البلدان العربية، وبدأت الحروب الصليبية التي انتهت لفترة باستيلاء الاقطاعيين الأوروبيين على بعض المدن الإسلامية ومنها القدس حيث بنوا القلاع الضخمة.

ولكن بعد مرور مائة سنة تقريباً استعاد المسلمون توحيد قواهم وألحقوا بالصليبيين هزيمة نكراء طردتهم تباعاً من مدينة بعد الأخرى ولا سيما من القدس التي لم يعودوا إليها بعد ذلك سوى حجاج آمنين.

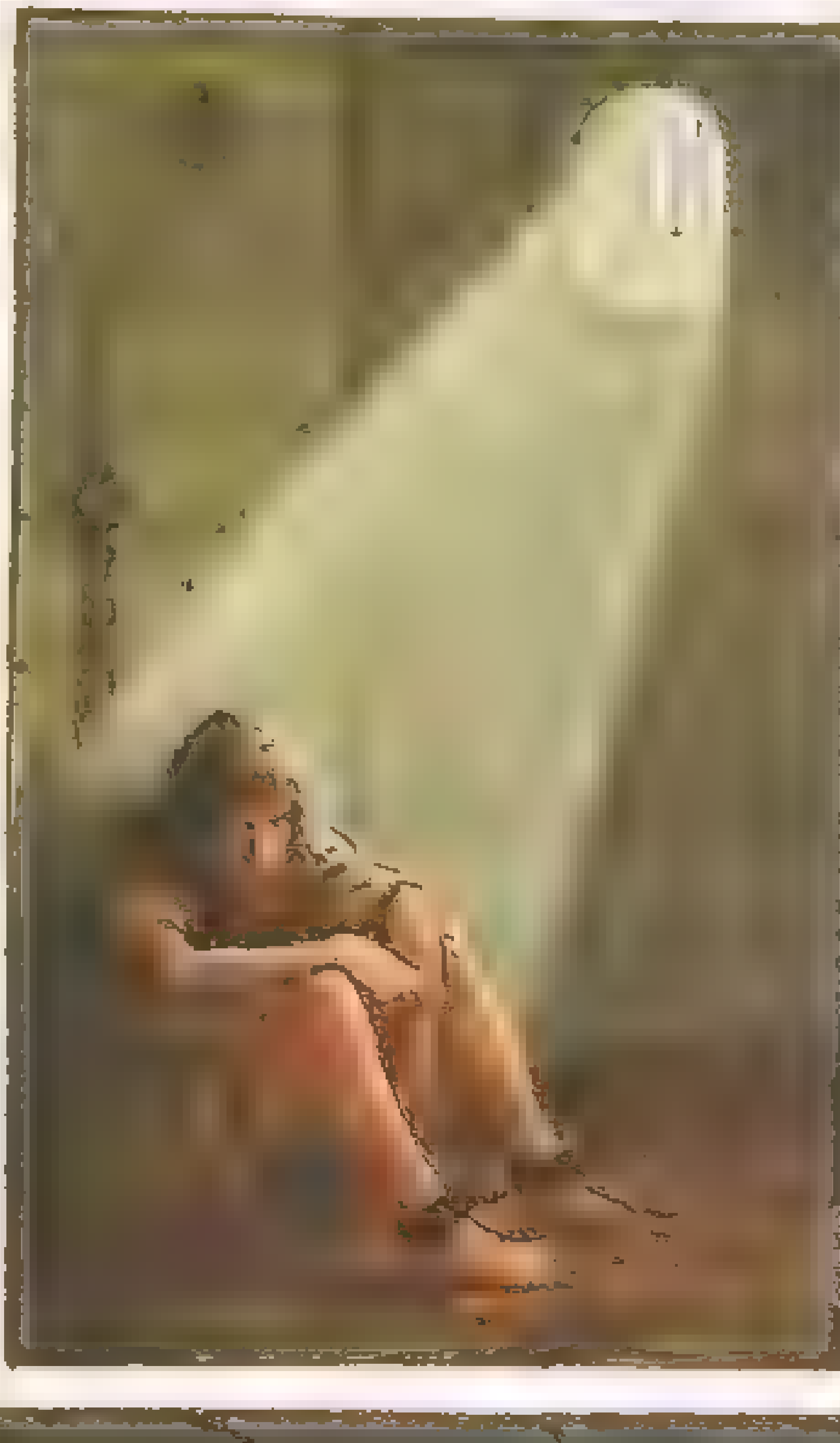






سجناء القلاع

كان لكل قلعة سجن عبارة عن غرفة تحت الأرض رطبة وقاتمة، واليوم تسمى هذه السجون بالزنزانات. وكانت الزنزانات مزودة بالسلاسل الضخمة التي كانت تستعمل في تقييد السجناء إلى الجدران وإلى آلات التعذيب. كانت بعض الزنزانات صغيرة لدرجة لا تمكن السجين من الوقوف أو الاضطجاع. لذا كان عليه أن ينثني على نفسه في وضع غير مريح، حتى عندما يريد النوم.



وكان قرب الزنزانة عادة غرفة سرية اسمها (المنسية) أي (غرفة المنسيين) وكان الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى تلك الغرفة هو باب سري في السقف. فعندما كان السيد يريد قتل أحد السجناء سراً كان يضعه في غرفة المنسيين، حيث كان السجين يترك إلى أن يموت.

لم يكن جميع السجناء يعاملون بالقسوة نفسها فكان بعض السجناء يلقون معاملة طيبة ويودعون سجوناً مضيئة وواسعة يسمح فيها لأصدقائهم وأسرهم بزيارتهم وكان أولئك السجناء يدرسون ويكتبون الرسائل والكتب.

كان الملك يبني قلاعاً خاصة للسجناء.. ففي انكلترا كان الملك يرسل السجناء الخطرين إلى برج لندن، وكان الهرب من ذلك الحصن أقرب إلى المستحيل.

كان الكثير من سجناء الملك من النبلاء المتنفذين والأغنياء. وأحياناً يقتاد الملوك والملكات والأمراء والأميرات إلى السجون، منهم من يسجن لتآمره على الملك. وكان بين السجناء أيضاً الأعداء الذين يؤسرون في المعارك ويودعون السجون إلى أن تدفع أسرهم أو أصدقاؤهم مبالغ طائلة للملك لقاء حريتهم.

ما يزال الكثير من القلاع التي بنيت في عصر الفرسان باقياً إلى اليوم، ولكن البارود والمدافع القوية التي انتشرت في القرن الخامس عشر تمكنت من دك أكثر أسوار القلاع سمكاً. لذا بنيت القلاع فيما بعد على شكل بيوت جميلة لا تشبه الحصون.





١ ـ الباستيل في فرنسا القرن الرابع عشر. دمر عام ١٧٨٩.
٢ ـ ألميريا في اسبانيا بني في القرن الثامن.
٣ ـ هارليش في ويلز، القرن الثالث عشر
٤ ـ بوديام في انكلترا، القرن الرابع عشر.
٥ ـ نوشوا نشتاين في ألمانيا ١٨٨٠.
٦ ـ برج لندن في انكلترا القرن الحادي عشر.
٧ ـ شيللون في سويسرا، القرن الحادي عشر

عصر الفرسان

تصنيف ملاك الأراضي

في العصور الوسطى كان الملك يملك معظم الأراضي ولم يكن البارونات وأصحاب الأراضي يملكون عقاراتهم بل كانوا مستأجرين عند الملك، وكان عليهم أن يزودوا الملك بعدد من الفرسان ليحاربوا في جيشه لقاء بقائهم في أراضيهم.

وكان البارونات وبعض رجال الكنيسة الأغنياء يقسمون بعض أراضيهم بين الفرسان. لم يكن جميع الفرسان أغنياء ولكن كان عليهم جميعاً الانضمام إلى جيش الملك في أوقات الحروب.

وكان الفقراء يسمون بالفلاحين أو القن (عبيد الأرض) وكانوا يعملون في أراضي الفارس، وعندما ينجزون أعمال سيدهم كانوا يزرعون أراضيهم الصغيرة المساحة. كان السيد يبيع الأرض بعبيدها، ولكن إذا أصبح العبد حراً لا يمكن بيعه.

الفروسية

الفروسية كلمة فرنسية تعني «الفرسان على صهوات الخيل»، كان الفرسان أشد أنواع الجنود سطوة إذ ذاك، مما ميزهم على سواهم. ولكن كان على الفرسان أيضاً أن يتحلوا بأخلاق الفروسية أي أن يكونوا شجعاناً يتقنون التصرف، وشرفاء ومتدينين ولطفاء.

ويروى الكثير من الحكايات عن الفرسان الذين ينطلقون في مغامرات مثيرة ويقاتلون التنين ويخلصون العذارى من الأخطار.. كانت قصص الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة شائعة جداً في العصور الوسطى. ولكن في الحقيقة كان الفرسان دائماً يتصرفون بشكل سيء.

رتبة الفارس

كان الملك في كثير من الأحيان يقلد الرجال لقب الفروسية على أرض المعركة إذا حاربوا ببسالة، بأن يلمس كتفهم بسيفه. ولكن أيام السلم كان على الفارس أن يجتاز احتفالاً دينياً طويلاً يتوج سني التدريب الطويلة. وقبل أن يقلد لقب الفارس كان حامل الدروع يمضي ليله وحيداً يصلي في المعبد واضعاً سيفه وترسه بجواره، وكانت تلك الطقوس تسمى (عشية العيد).

ينتمي بعض الفرسان إلى جماعات دينية أو (طرق)، من أشهرهم فرسان الاسبتارى وفرسان الداوي (فرسان الهيكل) وقد حارب هؤلاء الفرسان ببسالة أثناء الحملات الصليبية.

فرسان اليوم

تقلد رتبة الفارس اليوم في بعض البلدان كدلالة على الشرف وكمكافأة للخدمات التي يقدمها الفارس لبلاده. ولكن نادراً ما يعيش الفرسان اليوم في قلاع مثل قلاع الفرسان في الأيام الغابرة.

صدر من سلسلة المستكشف الصغير :

عالم البراري	تعال نكتشف	دليلك	ماذا عن
ـ الدب	ـ عصر البخار	ـ إلى الكلاب	ـ قاهرو قمة افرست
ـ الفيل	ـ عالم تحت البحار	ـ إلى السيارات	ـ الفرسان والقلاع
ـ النمر	ـ عالم السرعة	ـ إلى الطائرات	ـ رحلات الحيوانات
ـ القندس	ـ الكواكب	ـ إلى الأزهار	ـ جنكيز خان
ـ الكنغر	ـ عالم الليل		
ـ الأيل	ـ عصر الجليد الكبير		
ـ البطريق	ـ عالم الألكترون		
ـ الذئب	ـ عالم الديناصور		

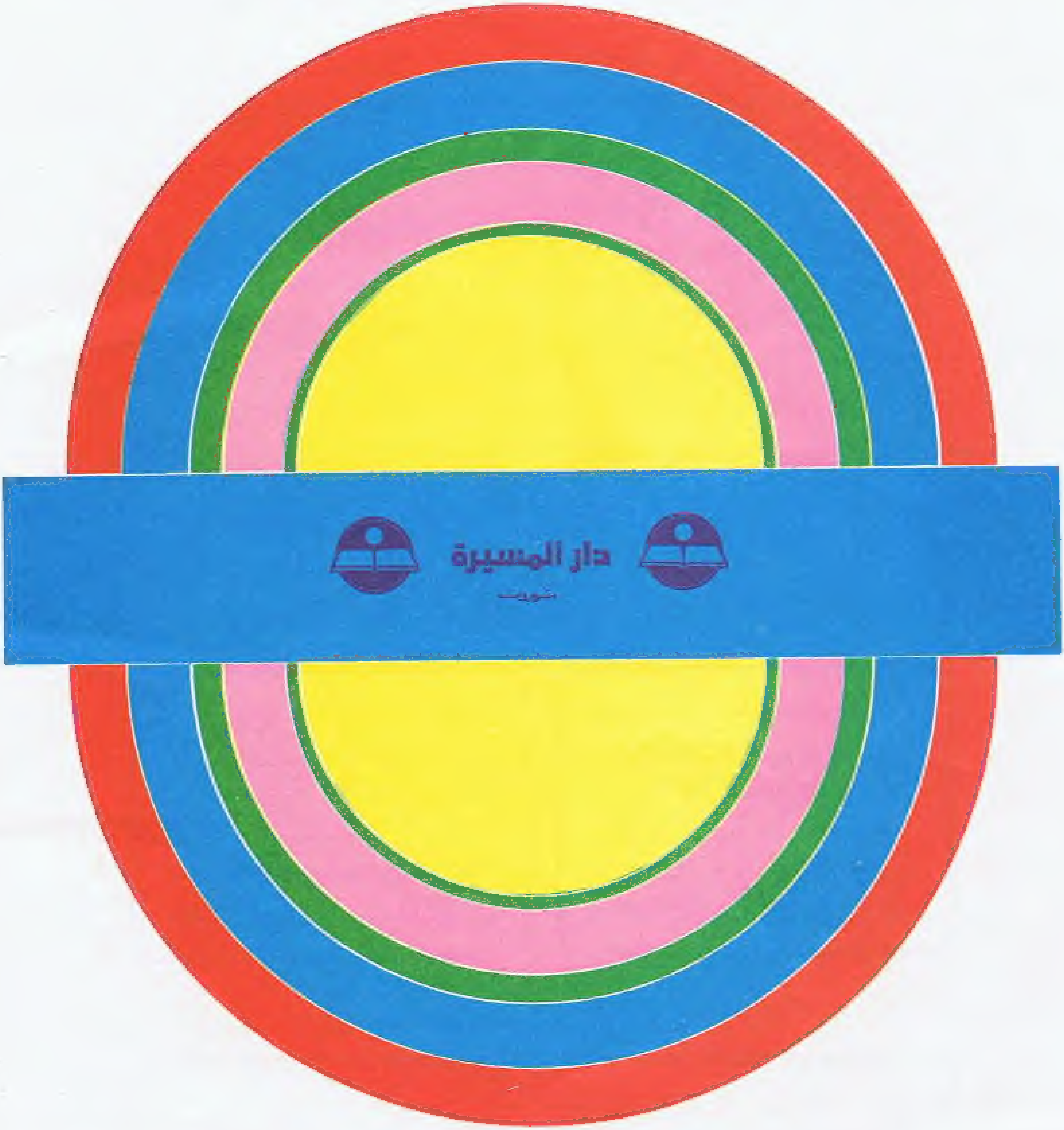
نُقلَت عَن الإنجليزيَّة بامتيازٍ خاص
وَإشتِراك فنّي مِن مُؤسّسة :
Grisewood and Dempsey Ltd
لندن
أعدّها وَأخرَجها باللغة العَربيَّة:
دار المسيرة بيروت

الطّبعَة الأولى ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

ترجمة
هالة نابلسي

تنضيد الأحرف
المركز الإلكتروني للخدمات الطباعية

مُراجعة
جوزيف صفير


دار المسيرة


المستكشف الصغير: ماذا عن

دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت